الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة
روايات الطاهر وطار أنموذجا

د/محمد الصالح خرفي
جامعة جيجل – الجزائر

مدخـــل:

سيطرت الكتابة الأيديولوجية على المشهد الروائي الجزائري لفترة من الزمن،خاصة فترة السبعينيات و بداية الثمانينيات، وبالموازاة مع ذلك كانت الكتابة عن الثورة بنظرة إيديولوجية أيضا، ولكن مع الجيل الجديد من كتاب الرواية –في التسعينيات وبداية الألفية الثالثة– تمّ التخلي عن هذه الرؤى أو التراجع عنها بشكل أو بآخر، أو عدم إبرازها بالشكل الذي كانت تظهر به سابقا، و تم الانتقال من الأدلجة السياسية الفاضحة –إن صح هذا الوصف– إلى إيديولوجيا الكتابة التي تأسست بفعل التغيرات والتطورات التي حصلت في البنية السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية الجزائرية، ودخول أقلام جديدة في عالم الكتابة الروائية وتطعيم دمها بدم جديد لا يحمل الجينات نفسها.

وقد تشابك الديني مع الإيديولوجي في المتن الروائي الجزائري عند العديد من كتاب الرواية، بل إنه قد هيمن عند البعض، ومنهم الطاهر وطار–محور هذه المداخلة– الذي لا تكاد تخلو رواية من رواياته القديمة والجديدة من هذا التشابك والتداخل، بدء من اللاز إلى الولي الطاهر يرفع

يديه بالدعاء، وسنحاول في هذا المقام التعرض لهذا التداخل مبرزين الديني والإيديولوجي في مدونته الروائية، بدء من العنوان إلى الإهداء إلى المتن.

والحقيقة أن "موضوع العلاقة بين الديني والسياسي، المقدس بالمدنس –قد شغل– الفكر كثيرا في قديم الزمان وحديثه، وأخذ الكثير من اهتمامات الباحثين ورجالات السياسة والدين على حد سواء وهو على أهميته أثار وما يزال يثير جدلا كبيرا على المستويين العام والخاص"[1]؛ على المستوى السياسي والفكري وعلى المستوى الأدبي،وباعتبار الأديب منفعل بالأحداث وفاعل فيها في الوقت ذاته، فقد حول هذا الأديب الكثير من الخطابات التي يكتبها إلى خطابات سياسية ودينية، جريا وراء السائد محاولا أن يُصبغَ نصوصه ببعض السمات الدينية والسياسية باعتبار قارئه متشبعا بها،أو محاولة منه في تبليغ هذا القارئ المفترض والمتحول –عبر الزمان والمكان– والمتعدد،بعضا من تلك الرؤى.مع الحفاظ على الخيط الفاصل بين الأدبي الجمالي والديني والسياسي، حتى لا تتحول الخطابات الأدبية إلى خطابات مشوهة أو مكررة.مع التأكيد على أن النص الأدبي مهما كان نوعه وجنسه، هو نتاج السياقات العامة التي أنتجته ولا يمكنه أن ينوجد خارج هذه السياقات، أو أن ينفصل عن مرجعياته التي تأسس بها أو فيها، أو أن يكون مفارقا للبنيات التي يتداخل معها أو يرتكز عليها. فـــ"للخطاب الديني تأثيره الذي لا يمكن تجاهله أو إنكاره في تشكيل بنية الوعي ليس لدى المواطن العادي فحسب بل –وهذا هو الأخطر– لدى عدد لا يستهان به من الصفوة المثقفة و المؤثرة في مجالات الإعلام و التربية و التعليم بصفة خاصة"[2] كما أن "الأيديولوجي يمثل عصب الرسالة المتضمنة في أي اتصال لغوي في مجال النصوص"[3] لكن للأسف تحولت بعض النصوص الأدبية في الجزائر و في العالم العربي، إلى نصوص دعائية –

مثلما هي بعض روايات الطاهر وطار الأولى- وتأدلجت الكتابة الروائية، من خلال إبراز إيديولوجية الروائي بصورة واضحة، ونتج عنهما السعي إلى تكريس القراءة المؤدلجة، والتمكين للتبعية -التبعية للسياسي طبعا- لا للإبداع .مع الإقرار أن "الرواية عمل أدبي يفترض فيها أن تحتوي نظاما فكريا معينا أو رؤية كلية أو جزئية للحياة تصوغها وفق معايير فنية تجعل منها في النهاية كيانا فنيا يجوز وصفه بالرواية"[4] وعليه لابد للروائي أن يولي العناية فيها لهذه الجوانب دون غيرها، على الرغم من تناوله للديني وللسياسي.

وقد تراوحت مستويات الرواية الجزائرية المعاصرة ،داخل الفترة الزمنية الواحدة وعند الروائي الواحد أيضا، وتجلى فيها الصراع الأيديولوجي،الذي ينتصر فيه البطل بقوة السلاح لا بقوة الأفكار وإذا عدنا إلى المتن الروائي الجزائري لوجدنا أن الرواية الجزائرية" قد رصدت الكفاح البطولي لأبناء الشعب، ممثلا في الثورة المسلحة -كما- رصدت أيضا الصراع الأيديولوجي"[5] الذي دار في تلك الفترة أو في الفترات اللاحقة.

والراجع إلى الدراسات النقدية الجزائرية -سواء أكانت كتبا منشورة أو رسائلا جامعية- مخطوطة- لنيل درجات علمية- والتي تناولت الرواية،يجد أن الكثير منها موجه إلى نصوص روائية غير جزائرية ،دون الاهتمام بما يكتبه أدباء الجزائر،على غنى وتعدد ما يكتب عندنا،وليس معنى هذا أن ننغلق على ذواتنا، بل لننطلق من الذات لنصل إلى الآخر العربي والغربي، وعودة بسيطة إلى البحوث والدراسات الأكاديمية المقدمة في مختلف أقسام اللغة العربية وآدابها تبرز جيدا حجم المأساة والظلم المسلط على النص الروائي الجزائري.

ولقد جاء هذا الملتقى ليذكر الدارسين والنقاد بوجوب الاهتمام بأدبنا،و مساهمة منا في الاقتراب من النص الروائي الجزائري آثرنا الحديث في هذه المداخلة على مجموعة من الروايات الجزائرية- اللاز، العشق والموت في الزمن الحراشي،الشمعة و الدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء- لروائي جزائري واحد،وهو الطاهر وطار مؤسس الرواية الأيديولوجية السياسية في الجزائر على حد وصف الناقد المرحوم محمد مصايف.

وستكون الإشارة إلى روايات وطار لإبراز الديني والإيديولوجي عنده وكيف تمظهر وتجلى عبر رواياته المتعددة،حيث حرص في كل رواية من رواياته أن يؤرخ للجزائر روائيا،مقدما الشخصيات الروائية وفق قناعاته الدينية و تصوراته الإيديولوجية .

الديني والإيديولوجي من خلال العتبات

تعددت العتبات النصية، أو العلامات اللغوية الخارجة عن بنية النص الأصلي،-أو ما يسمى بـــ "مابين النص" على حد تعبير جيرار جينيت Gérard Genette -في روايات الطاهر وطار، محاولة منه للتقرب من القارئ الافتراضي، وتيسير فهم الرواية له، من جهة وتحميله رسالة ما من جهة أخرى،فكل عتبة نصية أو مدخل نصيّ، استخدمه الروائي الطاهر وطار-مقولة، إهداء ،عنوان كلي، عنوان جزئي....- له دلالاته وأهدافه التي يتوخاها منه،ليضيء طريق النص للقارئ وليوجه فهمه، حتى لا يضيع في مجاهل اللغة، وليعطيه ظلالا يستظل بظلها، ولأن هذه العتبات محملة بالديني والأيديولوجي لا يمكن تجاوزها وتكون البداية بها.

أ-**العنـــوان:**

يَعتبرُ الدرس النقدي المعاصر العنوان الكلي للرواية أو العناوين الجزئية ،مفتاحا أوليا ورئيسيا، يبرز رؤية الروائي، وبنية الرواية وتمفصلاتها، بل إن"العنوان يوجه القراءة على اعتبار أن العنوان بنية نصية"(06) كاملة، مفردة في صيغة الجمع، ويجعل القارئ أسيرا له ولو لفترة زمنية قبل الدخول إلى النص. ولكن العنوان سيبقى" بنية صغرى لا تعمل باستقلال تام عن البنية الكبيرة التي هي النص المنضوي تحت العنوان"(07)، فهو جزء من النص لا النص، والقارئ يلتفت أول الأمر إليه، لأنه أول ما يصادفه في غلاف الرواية الأول، ويكون بحجم أكبر من كل البيانات المرافقة له،كاسم الروائي،ودار النشر... فهو في الأغلب الأعم، خلاصة النص، ويساهم في توجيه المتلقي لأن" علاقة المتلقي بالنص تتحكم فيها طبيعة العنوان الذي يكون دعوة لتأمل ما تحته أو العكس"(08)، لأنه البداية الحقيقية والنافذة الأولى، ولهذا يتأنى الروائي في وضعه، واختياره، ليكون دالا أوليا يحيل لدلالات عدة قبل الشروع في القراءة وبعدها،فالعنوان في الثقافة المعاصرة، خرج عن دوره القديم"الجنسي"أي العامل على توضيح الجنس، وتبيان كون الشيء مختلفا عن غيره مما يشبهه أو يختلف عنه، ليلعب دورا جديدا، هو إنتاج المعنى، وممارسة سلطة دلالية أكيدة على النص الروائي.

والعائد لعناوين روايات وطار يلاحظ أنها عناوين طويلة، ببنية لغوية مركبة- العشق والموت في الزمن الحراشي، الشمعة والدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء- ماعدا رواية اللاز فقد جاء العنوان مفردا دالا على شخصية من شخصيات الرواية، كما نجد التداخل بين اللاز والعشق والموت في الزمن

الحراشي،حيث كُتب في غلاف الرواية الثانية في الأسفل جملة الكتاب الثاني، كأننا نكمل الرواية بعنوان هامشي؛ اللاز هو العنوان الأصل والعشق والموت في الزمن الحراشي هو العنوان الهامشي المكمل الموضح لدلالات أخرى إضافية أرادها الكاتب، فاللاز هو الابن غير الشرعي لزيدان بطل الكتاب الأول من الرواية،أما اللاز فهو بطل الكتاب الثاني؛ ومن خلال التركيز على زيدان واللاز تظهر الإيديولوجيا بوضوح، فزيدان شيوعي ماركسي اعتدى على أمه مريم ثم هاجر إلى فرنسا ليتزوج سوزان الشيوعية ليسافرا معا إلى موسكو للدراسة، ثم يعود إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية وتعود هي إلى فرنسا على إثر مرض أمها، ويبقى زيدان مناضلا في الحزب الشيوعي الجزائري وبقيام الثورة ينضم إليها ويناضل بإيديولوجيته لأن "الشيوعية ليست رداء ننزعه في الوقت الذي نشاء .. إنها عقيدة تقوم أول ما تقوم على الاقتناع المدرك للحياة"[09] وقد أختار زيدان الموت الجسدي في أخر الأمر على الموت النضالي، فيصبح مع الجيل الجديد،–في العشق والموت في الزمن الحراشي–جيل جميلة رمزا للتحدي والصمود والإعجاب، واللاز في الكتاب الثاني شخصية محورية وقيمة اجتماعية بنى عليها وطار الرواية وعنونها بها، اللاز إنسان لقيط "اللاز هذا اللقيط الذي لا تتذكر حتى أمه من هو أبوه"[10] بل هو أكثر من ذلك "كلما كبر ازداد سعاره ونمت فيه شرور لم تكن تتوقع من السطو على المتاجر إلى الخمر إلى الحشيش إلى القمار"[11] هذه هي سلوكات اللاز البطل الذي يمجده وطار. ويستمر اللاز في ذلك مع الضابط هاملت المريض نفسيا (مازوشي) فاقدا شخصيته. ثم فاقدا وعيه عندما شاهد عملية ذبح زيدان وتنتهي الثورة، فيحول وطار اللاز في روايته العشق والموت في الزمن الجراشي،اللاز الكتاب الثاني، من لقيط إلى

مجاهد، إلى ولي من أولياء الله الصالحين بل أصبح " السيد الكبير لا ينطق على الهوى" [12] بل أكثر من ذلك فهو –أي اللاز– "ولد كن فيكن"[13] يدعو الناس به "اللهم انفعنا ببركة اللاز، اللهم أعطنا الزيت والسكر وخفف عنا البرد"[14] مساويا إياه بنبي الله نوح عليه السلام "من يدري أن غضب اللاز لا يجلي على الدنيا غضب سيدنا نوح عليه السلام على قومه"[15] انطلاقا من هذه المرجعية أعطى الروائي للشخصية أبعادا منافية و مخالفة للحقيقة الإنسانية "اللاز كائن وغير كائن، كائن حيثما حللنا وولينا وجوهنا، اللاز يملأ الدنيا .. في كل مكان لم تقم فيه ثورة العدل، وفي كل موطن يذبح فيه زيدان .. وغير كائن لأننا لا نستطيع أن نشخصه في فرد معين"[16] فهذا الإصرار من طرف الروائي الطاهر وطار على رسم شخصية اللاز بهذا الشكل جعل اللاز يتكرر 428 مرة، فهل يعني هذا أن الحقيقة هي ما يبشر به اللاز، على الرغم من أن التاريخ قد أتبث فشلها.فمع زيدان واللاز تفقد الكثير من القيم معناها حيث تصبح لا شيء، وإن كانت لها حرمتها وقدسيتها. حيث يعلو صوت الإيديولوجيا وينتفي الدين من الحياة ومن حياة الأشخاص.

ومع الشمعة والدهاليز يسير وطار –مع ياسر و الشاعر–وفي يده شمعة ليتجاوز الدهاليز التي صنعت،عله بعد الدهاليز يصل إلى الطريق،و الكل يعلم الدلالات المتفرعة عن رمز الشمعة–النور، الحق، المعرفة..، ودلالات الدهليز–الظلمة، الجهل،..– وهي دلالات سطحية معلومة أما الدلالات الخفية فتتعلق بالصراع السياسي والإيديولوجي في الجزائر وصراعات التيارات النورانية و الظلامية.وهي الدلالة الحقيقية المخفية التي تصرح بها الرواية من خلال توالي الأحداث وصراع الشخصيات، وانتصار الدهاليز على الشمعة.وليس اعتباطا أن تأتي الشمعة وحيدة مفردة

والدهاليز بصيغة الجمع، فالظلام أقوى من النور في رواية الشمعة والدهاليز، على أن النصر في الأخير سيكون للنور الذي يمثل رؤيا سياسية وإيديولوجية.

والشيء ذاته يتجلى مع روايات وطار الأخرى الباقية؛الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، والولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، حيث يسيطر المفرد، ويعلي الطاهر وطار من شأنه–الولي الطاهر– بعدما فشلت الإيديولوجية في فرض منطقها ولم يبق إلا صوت الفرد المتفرد، وفي هذا إحالة إلى المراجعة، وإلى التعالي والسمو، وهذا التركيز على الولي في عملين اثنين مع الإشارة إليه أيضا في الشمعة والدهاليز، هو نتاج الدلالات التي يحملها –الولي– في الثقافة الدينية لدى عامة الشعب. وكأننا بوطار يستعمل شخصية واحدة متحولة من رواية إلى أخرى تحمل رؤية إيديولوجية واحدة، وعدائية واضحة للديني على الرغم من أن الولي الطاهر في يعود إلى مقامه الزكي و يرفع يديه بالدعاء فيه إعلاء من قيمة الديني لكن بالمفهوم السلبي.

ولم يكتف وطار بالعناوين الكلية للروايات بل لجأ إلى عنونة الفصول والمقاطع أو الفصل بين الفصول بعلامات مميزة دون عنونة مثلما فعل في اللاز–الكتاب الأول والثاني– وقد تجلت هذه العنونة خاصة في أعماله الأخيرة، بعد الاستفادة من التجارب السابقة ،حيث جاءت العناوين الفرعية بالشكل التالي:

-**الشمعة و الدهاليز: 1**– دهليز الدهاليز، **2**– الشمعة.

-**الولي الطاهر:1**– تعليق حر، **2**– العلو فوق السحب، **3**–السبهللة **4**– في البداية كان الإقلاع، **5**–محاولة هبوط أولى، **5**–محاولة هبوط ثانية، **6**–محاولة هبوط أخرى، **7**–هبوط اضطراري.

الولي يرفع يديه: 1-التحديق في الزمن، **2**-التأرجح المتقاذف **3**-العكس أصح، **4**-رسالة من تحت السواد الدامس، **5**-ما نخاف،.**6** - الإرهاب ينتصر، **7**-خذني معك، **8**-انقلاب السحر، **9**-ويل العراق يا مويلية.

وهي عناوين لجأ إليها وطار لتغير المسار العام للرواية وقطع الفكرة ليبدأ فكرة أخرى، وهي تقنية لتكثيف الرواية .

ب- الإهداء:

يحدد إهداء النص الروائي مجال النص ويجعله أسيرا له في معظم الأحيان، وهو في كل الحالات يحدد المجال ويعطي الإشارة على مسار النص الذي يريد أن يتخذه، أو يحدد أهم موضوعاته،مثلما نجده في رواية اللاز "إلى ذكرى جميع الشهداء"[17] وقد كان زيدان أحد هؤلاء وكانت الرواية خالصة له ولفكره، وكذا إهداء رواية الشمعة والدهاليز "إلى روح الباحث يوسف سبتي الذي كان يتنبأ بكل ما يجري قبل حدوثه»[18] حيث هيمنت شخصية الشاعر -يوسف سبتي- على النص، وإن لم يصرح باسمه الحقيقي فإن العديد من الدلائل والقرائن اللغوية تدل عليه،أما في إعماله الروائية الأخيرة فقد انتقل وطار من المحلية إلى العربية؛ ففي رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي،كان الإهداء" إلى عملاقي الفكر العربي المعاصر، المرحوم الدكتور حسين مروة، والدكتور محمود أمين العالم أطال الله في عمره، قد نتحايل على الدهر فنحصر ماءه، وإن في بركة، ونستحم فيه مرتين، ولكن لن نستطيع الاستضاءة بنور الشمعة الواحدة مرتين"[19] وفي رواية الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، كان الإهداء "إلى الشاعر الكبير سميح القاسم. من رأى منا منكرا فليغيره، بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلمه، وهذا أقوى الإيمان."[20]

فكل الإهداءات مؤدلجة و ما أسماء الذين أهدى إليهم الروايات– يوسف سبتي، حسين مروة، محمود أمين العالم،سميح القاسم–إلا دليل على ذلك،حيث يقاسمون الروائي الطاهر وطار بعضا من الهموم الأيديولوجية، وعلى خطاهم سارت الروايات في مضامينها، بل إن إهدائه الأخير فيه تلاعب صريح بالحديث النبوي، وقلب لمعانيه الصريحة التي أُثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

الديني في روايات وطار

شكلت رواية الموت والعشق في الزمن الحراشي، اللاز الكتاب الثاني، البداية الحقيقية لإشارة وطار للحركة الإسلامية في الجزائر، وقد تواصل ذلك في "الشمعة والدهليز"، و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء"حيث عالجت هاته الروايات، الظاهرة الإسلامية – الحكم الإسلامي، جماعة الهجرة والتكفير، الحركات الإسلامية المسلحة. – بشكل لم يتناوله في الروايات السابقة، ففي الشمعة والدهاليز ومنذ البداية يشير إلى الحركة الإسلامية: "لهذا السبب ولغرض تجاوز محنة الظلموت ينبغي قيام الدولة الإسلامية الإسلام هو الشمعة الوحيدة القادرة على إنارة كل الدهاليز والسراديب"[21] لكن هذه الشمعة سرعان ما تتحول إلى دهليز من الدهاليز فيما يأتي من الرواية، حيث عرّض بالمنتسبين إلى هذه الحركات واصفا إياهم بشتى الصفات: "هكذا نزعوا سراويلهم وارتدوا الجلابيب وأطلقوا اللحى واستسلموا لسرداب من سراديب الماضي"[22] وقد جعل وطار مع الشاعر بطل الرواية بطلا آخر هو عمار بن ياسر، أحد رموز الحركة الإسلامية ليقابل بين فكرتين؛ فكرة الشاعر و فكرة عمار بن ياسر، لكن نهاية الشاعر هي الشهادة و الموت،

موت من أجل الفكرة لا العقيدة، أما عمار بن ياسر فواصل المسار لكن لا ندري إلى أين ولا كيف واصل.

والشيء نفسه في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي «نعيد الجهاد في سبيل الله إلى ما كان عليه ونستأنف الفتوحات نستعيد القسطنطينية والمغرب والأندلس، ونصل هذه المرة موسكو وباريس وكوبنهاغن والهند وكل العالم»[23] مع التركيز على ذكر الولي الطاهر «أنا صاحب المقام الزكي وسيد هذه الفيافي وحامي الأمة من الوباء»[24] حيث أعطاه مكانة عالية وأخرجه من عالم البشر العاديين إلى عالم علوي وهذا ما يتنافى مع الحقيقة ومع التدين، كما أدرج وطار في نصه الروائي رسالتين اثنتين للشاعر عيسى لحيلح، الأولى مؤرخة في 1998/01/30 والثانية في 1999/06/27، والرواية ككل مؤرخة في أوت 1999، و هذا ما يشير إلى تواصله معه وهو في الجبل، وقد حاول الروائي من خلال الرسالتين التواصل مع الإسلاميين بطريقتة الخاصة، على الرغم من خلافه معهم وعدم قناعته بأفكارهم وطريقة تعاملهم مع النظام والحكم، ولكن هذا التضمين جعله يخفف من حدة العداء والخلاف، علما أن فترة كتابة الرواية شهدت تطورات دموية رهيبة بالجزائر.

وقد واصل وطار إشاراته للإسلاميين في روايته الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء متخذا من التطورات الجديدة في العالم العربي –خاصة في العراق–نافذة لعرض أفكاره ورؤاه و كذا متخذا من الصحفي عبد الرحيم فقراء صحفي قناة الجزيرة واسطة لتبليغ أفكاره. "يقول إمام جامع الدار البيضاء المنكب بجلاله، يلعق مياه بحر الظلمات، في خطبة يعيدها كل جمعة، من ميزات المسلم، طاعة الله والرسول وأولي الأمر. فيرن صداه

في جامع الزيتونة والأزهر وبيت المقدس والأمويين ومكة والمدينة، ويأتي الرجع، اللهم أحفظ أمير المؤمنين"[25].

والحقيقة أن شخصيات روايات وطار لا تحمل هما إسلاميا أو قضية إسلامية بل إنها تعيش الاستلاب والاغتراب الروحي، لا مكان للدين في حياتها فهذا قدور في روايته اللاز" كان يحب السهر كثيرا، السهر في المقاهي .. ولا في الجامع حتى في رمضان، إنما تحت جدار منزله بالقرب من دار زينة"[26] ومثله اللاز في الرواية نفسها، لا يؤمن بالقيم الدينية ويؤمن بالكذب والافتراء شريعة حياتية لينتقم من الشامبيط الذي ضربه مائة جلدة،ولا يختلف عن قدور واللاز، زيدان الذي يصرح "إن الكبت يجمد الطاقات ويعجل بالانهيار .. الانضباط شيء والتزمت الديني شيء آخر، إنه يورث العقيدة الخطيرة، هات القارورة يا اللاز"[27] فالحقد على القيم الدينية جعله يمجد هذه النماذج ويحط من قيمة الشخصيات التي تمثل المرجعية الدينية مثل الحاج الطاهر، ومعلم القرآن، وممثل جبهة التحرير الذي جاء لينفد حكم الإعدام في زيدان إلا أن الهجوم على القيم الدينية يزداد حدة في الجزء الثاني من الرواية (العشق والموت في الزمن الحراشي) من خلال صراع جماعة جميلة وجماعة مصطفى، ويصبح كل متمسك بالدين رجعي يعمل ضد مصلحة الوطن كما وصف بوزيد " أيها الرجعي الخسيس إنك تتآمر مع الشياطين ضد الوطن وضد مصلحته"[28] وكما وصفت جميلة مصطفى "مصطفى وأمثاله رجعيو اليوم يعملون على تخريب البلاد..إنهم يحنون إلى الاستعمار و يعملون على ربطنا به بشكل أو بآخر"[29] ولهذا انتصرت جميلة الشيوعية و لم يشوه وجهها الجميل من طرف مصطفي،بل إنه يحاول أن يطعن في القيم الدينية على لسان عشيقة عيسى الهندية المسلمة؟؟ "كل الديانات الكثيرة في بلادنا معقولة، أما نحن

فماذا نعبد وبماذا نفسر أن نكون في الهند مسلمون"[30] والدعوة إلى العودة إلى المنابع والأصول عند الروائي حركة تمردية ليس إلا وهي حتما فاشلة.

أما المرأة عنده فهي مجرد سلعة تتداول بين الرجال لا قيمة لها ولا معنى للشرف والعفاف عندها ولنتابع حوار جميلة مع صاحب الأربعين المتقدم لخطبتها والذي عرض عليها تقديم شرفها للسماح لها بالالتحاق بالجامعة " إذا كنت راغبة حقا في ذلك فسأعطيك حريتك بشرط واحد– ما هو الشرط؟ – ما يعز على البنات منحه لغير أزواجهن– لحقت متأخرًا، لقد أعطيتها لفلسطيني مند زمن بعيد وهذه مناسبة لأصارحك بذلك حتى لا تصدم. انك شاب عصري. غربي التفكر، ولا تهمك الشكليات على ما أعتقد– الفلسطيني الكلب و لماذا فعلت ذلك؟ –أغواني.. كان لا بد أن أعطيها لأحد، ففضلت مسافرًا جميلاً، لن ألتقي به ثانية ولن يتبجح على إخوان"[31] فالشرف من الشكليات والأشياء الزائدة في عالم المرأة عند وطار الذي نسي أن المرأة الحرة تجوع ولا تأكل بثديها، وأن الدين أفيون الشعوب، أدخل فيه وطار حتى من يؤمن بالقيم الدينية مثل مصطفى الذي شك في نفسه ولم يثق في قيمه مما جعله يقرر في أمر الطالبة ثريا "إذا كان ارتكاب الإثم معها يعيدها إلى الجادة ويفصلها عن الحمر فهل يغفر الله هذا الإثم أم لا. الإمام مالك يقول: يموت الثلثان لإصلاح الثلث ولا شك أن الزنا مع ثريا كالدواء المحرم، يجب أن يتكفل علوان بها فهو أكثرنا إباحية على ما يبدو، وسيغفر الله له ما تقدم وما تأخر إن هي اهتدت على يده"[32]

هذا هو الدين عند وطار من الأوراق الأولى للرواية –في الجزء الأول والثاني– إلى أخرها وهو نابع عن تخطيط مسبق وقناعة إيديولوجية معينة.لكن هذه الحدة قد خفت بفعل التغير الذي حدث في الساحة السياسية والفكرية الجزائرية، ولذلك لا نجد في الشمعة والدهاليز هذا الأمر، أو في

الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي أو في الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، حيث لجا الروائي إلى الترميز والتلميح لا الإشارة الفاضحة، كما احتفى الروائي الطاهر وطار بالولي إلى درجة كبيرة جدا.

الإيديولوجي في روايات وطار

شكلت الثورة التحريرية والاختلافات التي وقعت في جبهة التحرير الوطني مع عناصر الحزب الشيوعي مادة الجزء الأول من رواية "اللاز" فعبر الفلاش باك الذي رجع بالشيخ الربيعي –المنتظر في مكتب المنح– إلى الماضي وإلى فعل الثورة، متذكر ابنه قدور.فكان المفتاح الذي أدى إلى معرفة أحداث القص ويستمر التذكر مع قدور للجارة زينة، وزيدان واللاز ،لتتشابك الأحداث عبر شخصيات متفاوتة التأثير على المجرى العام للرواية (مريانة، الشامبيط، حليمة، حمو، دايخة، مباركة، خوخة، بعطوش، سي الفرحي، الحاج الطاهر، الناصر، هاملت، ستيفان، سوزان...) أما الجزء الثاني من اللاز "العشق والموت في الزمن الحراشي" فهو استمرار للماضي–في الاختلاف والصراع– لكنه ينطلق من الحاضر من حملة تطوعية طلابية مع الفلاحين، في ظل الاشتراكية التي يتحمس لها الكاتب.هذا التواصل أبقى على بعض الشخصيات من الجزء الأول، (الشيخ الربيعي، سي بعطوش، حمو، اللاز) مع جيل جديد من الشباب الذي يؤمن بعضه بالاشتراكية (جميلة، بلقاسم، فاطنة، اليامنة، ثريا، الشريف، عبد القادر) وآخر معارض لها (مصطفى، علوان، سي منصور) رموز الإرهاب الديني والرجعية؟؟. ويموت زيدان (الأحمر) ذبحا بحكم الثورة ويفقد اللاز وعيه، لكن فكرة زيدان انتصرت وتحمست لها القيادة السياسة في البلاد، وفي الرواية آمنت بها جميلة الشابة، التي انتصرت على جماعة مصطفى. ونعتقد أن اختيار اسم جميلة كان مخططا له لما للاسم من أبعاد

تاريخية واضحة وارتباطه بالفكرة الماركسية و الشيوعية، حتى يوحي أنها جميلة كصاحبتها.

وهذا ما جعل الناقد عبد الفتاح عثمان يصرح أن وطار "ينتصر للتيار الشيوعي [وهو] في هذا ينسجم مع اتجاهه الماركسي الذي فرض على الرواية[العشق والموت في الزمن الحراشي] وجعل شخصياته تنطق بأفكاره"[33] ولا يتغير الأمر مع الشمعة والدهاليز"، و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء" وهو في ذلك ينتصر لفكره السابق الذي صرح به في رواياته السابقة وفي رواياته اللاحقة. فبطل الشمعة والدهاليز الذي هو الشاعر يوسف سبتي يشبه كاتب الرواية ويصرح في الصفحات الأولى للمتن الروائي" لفت انتباهي إلى كتب قال إنها مهمة وقيمة، فكان أول اتصالي بالفكر الماركسي وتعرفي على الاشتراكية"[34] .وقد تمظهرت الكتابة السياسية والأيديولوجية بشكل واضح ،في روايات وطار بل إنه يفتخر بهذه الصفة قائلا «أنا فخور بأنني كاتب سياسي شبه متخصص في حركة التحرر العربية عامة والجزائرية خاصة»[35]

بل أن شخصيته المركزية "الولي" في الولي الطاهر يرفه يديه بالدعاء متشكل من عناصر فكرية عدة:

«نصفي ممتلئ بالقرآن الكريم بالحديث النبوي الشريف، بابن عربي والمتنبي والجاحظ والشنفرى وامرئ القيس، زهير بن أبي سلمى ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ونصفي الآخر ممتلئ بماركس وأنجلز لينين وسارثر وغوركى وهمنغواي وهيغل ودانتي»[36] وهذا التمازج والخلط هو الذي جعل هذه الرواية تكون أكثر سياسية من غيرها وتحمل قضية الأمة والصراع العربي الأمريكي "في زمن الوباء

الذي عم ليس فقط العالم العربي، إنما كل العالم الإسلامي. زمن صار فيه العرب والمسلمون جندا للمسيحيين، يحملون أسلحتهم، ويلبسون ألبستهم، ويروجون لعقائدهم. زمن صار فيه الهروب إلى الفيافي، والبدء من البداية واجبا."[37] وقد كانت الإشارة إلى العراق وسوريا بشكل واضح في رواية الولي يرفع يديه بالدعاء. "تعلمون أن سوريا، بفضل قيادتها الرشيدة، ذات النظرة المستقبلية، لا يوجد فيها أعمى واحد، ولا قط واحد في الشارع. إن صحة المواطن هي من أولويات حزب البعث العربي الاشتراكي السوري... وقد جاء في بيان لقيادة حزب البعث العربي السوري، إن الأمة تستعين بكل قواها الفاعلة من أجل الوحدة والحرية والاشتراكية، ومن أجل فلسطين، وكل الأراضي العربية المحتلة، بما فيها لواء الإسكندرون، وسبتة ومليلة، والجولان... سوريا العروبة، في طليعة الأمة، وهي رأس حربة في صدر العدو... وأضاف بيان حزب البعث العربي السوري، أن الغمة التي شهدتها الأمة العربية، أمس واليوم، تعود إلى تمزق الوطن العربي وإلى خلافات العرب فيما بينهم، وأن الوحدة وحدها، السبيل لتفادي مثل هذه الوضعيات، كما أكد ذلك الرئيس القائد، في أكثر من مناسبة."[38]

فضغط الظروف العالمية، والوضعية في العراق والعالم العربي والإسلامي، فرض على وطار رواية لم يعايشها لسنوات عديدة، كما هو الشأن لباقي أعماله• ولكن الروائي لم يستطع التخلص من سلطة الأيديولوجي عليه و لو «استطاع الأديب التوفيق بين الإيديولوجي والفني، وتخلص من هيمنة الإيديولوجي على الفني، لكان ذلك أجدى وأنفع للعملية الإبداعية عنده حتى وإن كنا نؤمن بأثر زمن الكتابة في توجيه العملية الإبداعية عموما»[40] وفي بعض الأحيان يغرق وطار في الخيال بعدما

ارتكز كثيرا على الواقع السياسي والاجتماعي والتاريخ في رواياته السابقة، خاصة في الولي يعود إلى مقامه الزكي والولي يرفع يديه بالدعاء.

وربما هذا هو السبب الذي جعل معظم روايات وطار هي روايات الشخصية الوحيدة المتفردة (زيدان في اللاز، اللاز في العشق والموت في الزمن الحراشي، بولرواح في الزلزال، الشاعر في الشمعة والدهاليز، الولي في الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، والولي أيضا في الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء) وهذا ما أشار إليه مصطفى فاسي في كتابه دراسات في الرواية الجزائرية••.

والحقيقة أن "نجاح الشخصية وإخفاقها في الرواية الإيديولوجية يتم بمقدار ابتعادها عن المباشرة في عرض الأفكار التي شكلت أساسا من أجلها، وقدرة الروائي على تضمين أرائه في البناء الفني للشخصية"[42] لكن وطار للأسف حمل شخصياته محمولات أيديولوجية ودينية أثرت على المسار العام للروايات وجعلتها تسير في اتجاه واحد هو الاتجاه الذي ارتضاه لها الروائي الطاهر وطار، وينتابك شعور قوي وأنت تقرأ الروايات أنها موجهة بشكل واضح وفاضح و محملة برسالة معينة يصر عليها الروائي في كل مرة، ولذلك ففي كل مقطع هناك الظلال الأيديولوجية و الرؤى الخاصة به، مبثوثة في كل أجزاء الروايات.

فمثلا من الأشياء التي تصادفك على طول الجزء الثاني "العشق والموت في الزمن الحراشي ترديد الشعارات " إيه شعبية، اشتراكية•••، ثورة زراعية"[44] ودعم السلطة المركزية والتوجهات العامة لها" دعم الثورة الزراعية لا غير يجب أن يقتنع جميع الناس بهذا"[45] ولقد كانت الثورة الزراعية والتطوع الهاجس الأكبر للروائي لاسيما أنه عمل في تلك الفترة مراقبا سياسيا في الحزب "نحن هنا لنعين الثورة الزراعية، ونعين

الهواري والبلاد كلها"[46] وقد بلغ تمجيده للسلطة مبلغه حتى أصبحت شخصياته تحلف بالهواري، و الله وراس الهواري"[47] والإعجاب بالثورة الزراعية و بمنجزاتها و بالتوجه الذي تسير عليه البلاد وعلى الرغم من الأخطاء التي وقعت فيه القيادة السياسية في الجزائر فإن الروائي الطاهر وطار لم يشر إليها. فهو يتقاطع مع السلطة أو قل وجهها الثقافي. وهذا الأمر استمر في رواياته الأخرى التي سبحت في بحر السياسة و تخلت عن الحدة الإيديولوجية وعوضها بشطحات الولي الطاهر والتكثيف المعرفي والتداخل في الأحداث.

خاتمـــة:

رواية اللاز– في الجزء الأول و الثاني – تشكل حدثا واحدا عبر التداخلات التالية: الضابط– زيدان–اللاز– جميلة –مصطفى؛ فاللاز قد خدم الضابط ثم خانه والتحق بزيدان وفقد وعيه بنهاية زيدان ذبحا لتأتي جميلة رمز التواصل الشيوعي وتعيد للاز وعيه وتنتصر على مصطفى. فهذه العناصر تتداخل لتشكل البنية العامة لنص الروائي –اللاز– الذي استهدف من خلاله وطار هدم كل القيم.

بعد عودة اللاز لوعيه، تبقى الآفاق مفتوحة، ماذا سيفعل؟ أينتقم لزيدان ويستمر على خطه؟ أم أنه يعود إلى جادة الطريق ويعرف صوابه؟ الجواب لا يملكه إلا وطار ونعتقد أن ما شهدته الجزائر في العشرية الحمراء فيه الكثير من تلك الأشياء ،فالأحداث تشهد على الاستمرار في الخط السابق وتبرز الحقد التاريخي والصراع بين القيم ولحد الآن لم يكن الحسم. نعيش في دوامة وصراع ومشاكل لا حصر لها نتيجة الأخطاء التي ارتكبناها والقهر الذي مارسناه على أنفسنا وعلى غيرنا.

كما قد حاولت روايات وطار اللاحقة الإجابة بشكل من الأشكال على التساؤلات التي طرحت في الروايات الأولى، وقد كانت الشمعة والدهاليز هي الجزء المكمل لرواية العشق والموت في الزمن الحراشي، إذ جسدت الصراع الأيديولوجي والسياسي بصراحة ،و إن تغيرت الأمكنة والأزمنة فالصراع واحد.كما كانت روايتيه الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي والولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء رواية واحدة، على الرغم من تغيير العنوان المكمل للولي الطاهر فبعدما عاد إلى مقامه الزكي رفع يديه بالدعاء، ولهذا يمكننا أن القول أن وطار كتب رواية واحدة بعناوين متعددة.

الهوامـــش:

(1) مزيد من التفصيل راجع كتاب موسى معيرش : الديني و السياسي في اليهودية و الإسلام بين المقدس و المدنس . منشورات مكتبة اقرأ قسنطينة ط1 ، 2007. الجزائر. ص أ

(2) نصر حامد أبو زيد: النص و السلطة و الحقيقة "إرادة المعرفة و إرادة الهيمنة" المركز الثقافي العربي لبنان، المغرب، ط4، 2004ص 92.

(3) المرجع نفسه .ص 99.

(4) رشيد العناني: استنطاق النص «مقالات في السرد العربي». الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط1، 2006. ص 205.

(5) عبد الفتاح عثمان: الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع «دراسة تحليلية فنية» الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1-1993.ص18

(6) ناصر علي : بنية القصيدة في شعر محمود درويش.المؤسسة العربية للدراسات و النشر، لبنان،ط01، 2001، ص 89.

(7) بشرى البستاني:قراءات في النص الشعري.دار الكتاب العربي، الجزائر، ط01، 2002.ص 32.

(8) محمد الماكري: الشكل و الخطاب "مدخل لتحليل ظاهراتي".المركز الثقافي العربي،لبنان، المغرب، ط01، 1991.ص 253.

(9) رواية اللاز ص105 .

(10) المصدر نفسه ص12.

(11) المصدر نفسه ص12.

(12) رواية العشق و الموت في الزمن الحراشي ص12 .

(13) المصدر نفسه 12.

(14) رواية العشق و الموت في الزمن الحراشي ص18 .

(15) المصدر نفسه27.

(16) المصدر نفسه27.

(17) رواية اللاز ص 4.

(18) رواية الشمعة و الدهاليز ص 3

(19) رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي ص3
(20) رواية الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء ص3
(21) رواية الشمعة و الدهاليز ص11
(22) المصدر نفسه .ص18.
(23) رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي ص66.
(24) المصدر نفسه ص 68.
(25) رواية الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء.
(26) رواية اللاز ص25.
(27) المصدر نفسه.
(28) رواية العشق و الموت في الزمن الحراشي ص102 .
(29) المصدر نفسه ص142 .
(30) المصدر نفسه ص60 .
(31) رواية العشق و الموت في الزمن الحراشي ص82 .
(32) المصدر نفسه ص 171.
(33) عبد الفتاح عثمان: الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع «دراسة تحليلية فنية». الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1-1993.ص129.
(34) رواية الشمعة والدهاليز.ص 56.
(35) رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي ص 8.
(36) رواية الولي يرفع يديه بالدعاء .
(37) المصدر نفسه.
(38) رواية الولي يرفع يديه بالدعاء .
(39) • تطرق وطار لهذه القضية في مقدمة روايته ص 6.
(40) إبراهيم عباس: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار. ط1. 2002 الجزائر.ص91.
(41) •• مصطفى فاسي: دراسات في الرواية الجزائرية. دار القصبة للنشر، الجزائر، ط1- 2000 .الكتاب عبارة عن مجموعة من الدراسات لثماني روايات جزائرية كتبت في السبعينيات والثمانينيات وهي: ريح الجنوب، وبان الصبح لعبد الحميد بن هدوقة، الزلزال للطاهر وطار الخنازير لعبد الملك مرتاض، عين الحجر لعلاوة بوجادي، ماتبقى من سيرة لخضر حمروش لواسيني الأعرج، عزوز الكبران لمرزاق بقطاش، مالا تذروه الرياح لعبد العالي عرعار.
(42) إبراهيم عباس: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار. ط1. 2002 الجزائر.ص185.
(43) ••• واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر " بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية " م.و.ك. الجزائر، ط1/1986جعل المؤلف الفصل الرابع بكامله من ص 494- إلى ص 595 للاتجاه الواقعي الاشتراكي ومثل له بأعمال الطاهر وطار فقط من خلال : اللاز- العشق والموت في الزمن الحراشي- الزلزال- عرس بغل -الحوات والقصر.
(44) رواية العشق و الموت في الزمن الحراشي
(45) المصدر نفسه.
(46) المصدر نفسه ص118.
(47) المصدر نفسه ص 37.